مقياس الثقافة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يرى أكثر الناس أن الحق جوهر لا يتجزأ ، وأنه إذا كان عند إنسان أو طائفة من الناس لم يكن عند خصومه أو خصومهم شيء منه . ومن ير هـذا الرأى تضؤل ثقافته ويضؤل فكره . وهؤلاء المؤمنون بالحق قد يرون من المنكر الشنيع أن يجزئوه بين خصمين أو أكثر . وفى الناس طائفة أخرى على شيء من الثقافة تستطيع أن ترى ما للأضداد من الحق ، ولكنها من أجل ذلك لا تؤمن بالحق لزعمها أن الحق لا يتجزأ ، فإن تجزأ انعدم؛ وإنكارها الحق بسبب تجزئه نقص فى ثقافتها ينشأ من قليل من الثقافة ، فإن بعض الثقافة قد يسوّق عن بعض . والدهماء وأشباه المتعلمين يغرون بمحاكاة هذه الطائفة فى إنكار الحق ، والتشبه بها فى الزراية عليه من غير بصيرة ولا فهم ، ويتشبهون بها فى الزراية على كل ذى حق من فضل فى العلم أو العمل أو الخلق ، ويتشبهون بها فى إظهاره بمظهر الزيف الخادع . وإذا كثر أمثال هؤلاء وأشباههم فى أمة ماتت روحها وأصابها الركود وإن كانت حية ترزق . والرجل من هؤلاء إذا وجد لانسان حقاً أنكره ، وإذا وجد له نصف حق أنكره ، وإذا وجد له ثلث حق أو ربع حق أنكره ، لأنه فى سريرة نفسه لا يرى لنفسه ذرة صغيرة من الحق تعدل اعترافه بجزء غيره من الحق أو كله . وكلما عظمت الثقافة عرف كل خصم جانب الحق الذى لخصمه ، بقدر عرفانه جانب الحق الذى فى ناحيته ؛ وهم إذا عرفوه حقيقون أن تقل الخصومة بينهم ، ولكن ربما لا تنعدم ، لأن كل إنسان يرى لنفسه من الحق نصيباً أكثر من نصيب غيره ، فيتقاتلون على تعيين حدود أجزاء الحق إن لم يتقاتلوا على تعيين حدود الحق كله . على أن الثقافة كفيلة بأن تلطف تلك الخصومة . لأن المثقف الباحث فى نفسه المفكر فيها كثيراً ما يراجعها ، فاذا عادى عادى وهو يحسب فى خصومته حساباً لما قد يكون من خطأ النفس الذى لم يفطن له بعد فى تقدير حقها ، ويحسب أنه ربما يفطن له فى مستقبل أمره . أما غير المثقف فانه لا يستطيع أن يحسب حساباً لما قد يكون من خطأ النفس الذى لم يفطن له . ولن ألصق خصائص الثقافة وأزمها لها عرفان أوجه الحق عرفاناً ملحاً يدعو إلى الاعتراف بها ويدعو إلى حسبان سقطات الفكر من غير قصد وإلى إسقاط المرء الشيء ولو القليل من الثقة بالفكر كى يعدل به ما قد يكون من خطأ لم يفطن له .

وقد ولع بعض الكتاب بالزراية على الحق زراية ليست زراية من يريد أن يقلقل المتنطسين فى التشيع لجانب منه عن تنطسهم كى يدركوا الجوانب الأخرى ، وإنما هى زراية الجاهل الذى يريد أن تعم الفوضى كى يكتسب فيها ومنها من غير حق ، كاللص الذى ينتهز فرصة فوضى العراك كى يسرق دراهم الناس . وأمثال هؤلاء الكتاب يجدون رواجاً فى أوساط التدهور حيث يصير السخر بالحق وأوجهه خطة عامة لا يستثنى منها فضل أو علم أو عمل أو خلق . فلا غرابة إذا ماتت روح أمة هذا شأنها وإن كانت حية ترزق . والحق عند الجاهل كالدنيا عند الأبله الساذج بقعة حول نفسه أو داره أو قريته . وكلما زاد المرء علماً كبرت الدنيا فى نظره حتى يعرف أنها عوالم ونظم شمسية عديدة لم تحص بعد . وكلما ازداد المرء فطنة وثقافة عظم الحق فى ذهنه كعظم الدنيا فى رأى علماء الجغرافية والفلك . على أن عظم الحق فى نظر المفكر قد يعدم الحق كما رأينا ، فيقول المرء لا حقيقة فى الحياة ، بل كل أقوال الناس دعاوى باطلة ، وإنما مَثَلُ نظر هذا المفكر إلى الحق مَثَلُ نظر المُبطِل فى الماء وقد قذف فيه بحجر ، فهو ينظر إلى دائرة موقع الحجر فى الماء تتسع حتى تفنى . ولكن هناك حالة من حالات الثقافة يطمئن فيها المرء إلى أن تباين أوجه الحق لا ينفى الحق . ألم تر أن الدواء يشمل الأضداد ويشمل حتى السم ، فلا ينفى ذلك أنه دواء . وحبذا لو فطن إلى ذلك أصحاب الأوهام الغريبة الذين لا يرون الخير إلا الخير المطلق الذي ليس متصلا بالشر ، والحقيقة المطلقة التى لا تتصل بباطل ولا تتجزأ ، فاذا وجدوا أن الخير فى الحياة ممتزج بالشر قالوا أن لا خير ولا شر؛ وإذا وجدوا أن الحق ممزوج بالباطل قالوا أن لا باطل ولا حق ، وإنما هى كلمات واصطلاحات ، وإن كل إنسان يعد الحق والخير ما فى ناحيته وما فيه نفسه ، ولكن لو أن أحد الناس نظر فى وجوه الناس ثم فى وجوه الحيوانات والطيور ثم قال : إن اختلافها يدل على أن ليس فى الكون شيء روحها أكان يكون مصيبا فى مقاله ؟

وكذلك من نظر إلى الدنيا نظرة الراهب الزاهد فيها ونظرة المقبل على مباهجها وأطايبها ونظر إليها نظرة القوى ثم نظرة الضعيف وجد أن أوجه الحق مختلفة، أكان يكون مصيبا لو قال إن اختلاف أوجه الحق ينفى الحق ؟ أليس قوله مثل قول من يعرف أن النور إنما يتكون من ألوان عدة، ويقول إن اختلاف مظاهر الألوان التى يتكون منها شعاع النور ينفى وجود النور . وإنما دفعه إلى إنكار الحق أن تغاير وجوه الحق قد يجعله عند الناس كمقياس من الجلد القابل للتمدد يتخذونه لقياس الأقمشة وهم تارة يمطونه إلى نصف مط، وتارة يمطونه إلى آخر ما يستطاع فيه من المط حسب أهوائهم. وكذلك يطيلون الحق ويقصرونه حسب أهوائهم فيصير الحق مقياس محتال وآلة خداع فتقل حماسة المرء فى سبيل الحق، ويحتقر الجهاد فى الحياة لنصرة الحق، ويدفعه اختلاف أوجه الحق إلى إنكار الحق، ويهيىء له العذر فى نصرة الباطل لأنه يرى أن الاحساس بالحق والباطل يختلف كاختلاف الاحساس بالحر والبرد حسب الأمزجة والطبائع. وإذا نظرنا إلى أكثر المتعصبين من الحياة الراجين إصلاحها وجدناهم من أصحاب المزاج الشاذ أو من ذوى الفشل أو الفقر؛ وبالرغم من أن أساس هذا الامتعاض فردى ، وأنه شعور خاص ، فانه من وسائل الرقى والاصلاح، ويؤدى إلى كثير من الخير والحق. وكذلك إذا نظرت إلى أصحاب المزاج المعتاد وأهل النجاح والسعادة وجدتهم يكرهون كل تغيير ، ويرون صلاح الحياة فى بقاء كل قديم على حاله ؛ وبالرغم من أن أساس رأيهم شعور خاص بما فيه النفع لهم فانهم يدافعون عن الحق الكائن والخير القديم ويفطنون إلى ما فى رأى المتعصبين من الحياة الراغبين فى إصلاحها من وهم وباطل وشر وإن لم يفطنوا إلى ما فى رأى هؤلاء من حق وخير. والرجل المثقف هو الذى يستطيع أن يجمع بين النظرتين من غير أن ينعدم الحق فى نظره ، والذى يعد فريضة التشبث بالقديم ليست من الباطل بل هى الحجر الذى يحتك به زناد المتطلعين إلى منازل الرقى الراغبين فى إصلاح الحياة فيورى هذا الاحتكاك نور الحق ونار الحياة . وإنما ضربنا مثل هاتين الطائفتين كى نوضح أن اختلاف منازل الحق لا ينفى الحق . وليس من الصعب تطبيق هذه الفكرة بالرجوع إلى كل أمر من أمور الحياة ، وإلى كل فريق من طوائف التفكير والعمل ، وإلى كل مذهب من مذاهبهما ومن أجلها كانت كل حقيقة متممة لأختها؛ ولا يتم الحق فى رأى إلا بما فى نقيضه من حق ، كما لا يتم الباطل فى رأى إلا بما فى نقيضه من باطل متصل به أو قد يتصل به . والذى يحير المفكر الذى لا يجد فى الثقافة عزاء ولاهو ممن يتغلب على نزعات الفكر الحر بالتعصب لجانب منه أنه يريد حياة بسيطة ولكنها ليست بسيطة، بل إنها كالخيط المعقد تلوى بعضه فى بعض. فاذا استراح المرء إلى الثقافة وجد فيها عزاء، ورحب صدره ولبه بقدر اتساع الحق فى نظره، ولم يحزنه اختلاف أوجه الحق، ولم يضله إلا فى ساعات كلل الذهن أو ساعات الخوف أو التعب أو السقم والتشاؤم الذى يتهيأ فى هذه الحالات أو فى مثلها . على أن مذهب من ينكر الحق بسبب اختلاف مظاهره هو أيضا من الوسائل التى تستقيم بها الحياة وتستفيد منها ، فالحياة تتخذ من كل مذهب وسيلة وتقبل نفعه وتدفع ضره، وبمذهب من ينكر الحق لاختلاف مظاهره تستطيع الحياة أن تداوى نقيضه وهو مذهب التعصب لجانب واحد من جوانب الحق . وإن المفكر ليرى فى العقل البشري على العموم خصيصة تمكنه فى بعض حالاته من قبول أى رأى أو معتقد سواء أكان قريباً أم بعيداً، متزنا أم غير متزن، جليلا أم غير جليل. وهذه الخصيصة قد تدعو إلى الباطل، ولكن من الثقافة ألا ييأس المفكر من أجلها لأنها دليل على أن العقل البشرى قادر على أن يرى كل جانب من جوانب الحق فى الأمور فى أثناء التخبط فى جوانب الباطل منها. ومادام الرأى لا يصير عادة أو قيدا وسجنا أو ألفاظا ميتة مستحبة أو شيئا لا يصح الرجوع عنه بطريق الثقافة ، فالأمل معقود بالتخبط والتهدي حتى ولو قبل العقل البشرى من الآراء فى بعض الأماكن والأزمنة والحالات ما قبلته عقول زنوج الغابات ونفوسها وما قبلته عقول القبائل البشرية من آراء رهيبة يصف أمثالها السير جيمس فريزر وسجموند فرويد . وأشد منها رهبة وخطراً على العقول البشرية أن يحرم محرم فى أرقى الدول الحديثة حضارة وفكراً على العقل البشرى أن يفكر إلا فيما تسمح بالتفكير فيه تلك الدول ، لأن الأمل معقود بتخبط الفكر البشرى وتهديه ما دامت الثقافة رائده ، وما دام الرجل المثقف يفسح صدره لرأى خصومه ، لأن كل جانب من جوانب الحق قد يتصل بجانب من جوانب الباطل، إذ بينهما تقارب وتناسب ؛ فالرغبة فى بلوغ الكمال وولوع الفكر